

بين الذاكرة والتاريخ: الرواية المحلية المبكرة لفتح المغرب الإسلامي

Between Memory and History: The Early Local Narrative of the Conquest of the Islamic Maghreb

آسيا ساحلي

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة، (الجزائر)،

a.sahli@univ-skikda.dz

حسام مراحي (*)

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة، (الجزائر)،

h.merahi@univ-skikda.dz

تاريخ الاستلام: 2022/12/ 28 تاريخ القبول: 2023/04/ 02 تاريخ النشر: 2023/06/ 10

من الحقائق الأساسية للكتابة التاريخية أن العديد من الأعمال المعروفة، التي كانت موجودة في فترة القرون الوسطى، لم تعد موجودة اليوم، وبالتالي فإن التحقيق في النصوص الموجودة يتضمن أحيانا محاولات لإعادة بناء المصادر المفقودة. تسعى هذه الورقة للبحث عن الرواية المغربية المبكرة لفتح الإسلامي لبلاد المغرب، وفهم علاقة الذاكرة بالتاريخ في تمثل أحداث هذا الفتح، وكيف وصلتنا هذه الروايات والطريقة التي وصلتنا بها. من خلال الرجوع إلى أولى النصوص العربية-البيزنطية. والتي اتضح أنها لا تعكس غالبا الماضي الحقيقي، بقدر ما تعكس الظروف المصاحبة للتذكر، فما يدعيه المؤرخون من أنه تاريخ القرنين السابع والثامن، يعكس بوضوح، صناعتهم وإبداعهم وطموحهم، أكثر مما يعكس الواقع الضائع في ذلك التاريخ.

الملخص

الكلمات الدالة المغرب؛ الفتح؛ الرواية المبكرة؛ الذاكرة؛ التاريخ

Abstrac:

One of the basic facts of historiography is that many works known to have existed in the medieval period have not survived to modern times. Investigation of the existing texts thus sometimes involves attempts to reconstruct lost sources. This paper demonstrates the early narratives of The Islamic Conquest of the Maghreb, and explains the relationship between memory and history in representing the events of the conquest, and how these narratives reached us. By returning to the first Arabic-Byzantine texts, Which, it turns out, does not often reflect the true past, as much as reflects the circumstances of remembering. What is he purports to be seventh- and eighth century history by historians, reflects

* المؤلف المرسل.

their industry and their ingenuity and ambition, more than it does the long-lost reality of that history.

Keywords: The Maghreb; conquest ;Early Narrative ; Memory ; history

1. مقدمة:

إن تراجع الإمبراطورية البيزنطية وتصاعد العالم الإسلامي عقب انتصار الفتوحات الإسلامية هي أحداث تاريخية معروفة وموثقة في العديد من الكتب، لكن هذه الوقائع التي تبدوا ثابتة تصطدم بطبيعة الكتابة التاريخية والغاية منها. يواجه الباحث في تاريخ المغرب الإسلامي المبكر، بالغياب شبه التام للرواية المعاصرة للأحداث، إلى جانب الطابع المتأخر للمصادر المخطوطة المحفوظة، وندرة الوثائق، ناهيك عن البيانات الأثرية، أضف إلى ذلك ما يمكن أن نسميه برواية الأمم المغلوبة "الرواية الموازية"، خاصة اللاتينية-اليونانية، فعلى الرغم من قتلها، لم تستغل بصفة كبيرة.

لهذا السبب، تنوعت المقاربات والدراسات التي تناولت هذه المرحلة التأسيسية من تاريخ الاسلام المبكر في بلاد المغرب، والتي يعد الفتح من أبرزها، وتراوح المقاربات التي اعتمدت في هذه الدراسات بين المقاربة التشكيكية التي تنفي أي مصداقية عن هذه النصوص، والمقاربة النقدية التي على الرغم من إقرارها بأسطورية الأخبار، إلا أنها اعترفت بوجود مادة أصيلة يمكن الانطلاق منها لتصوير مسار الفتح الإسلامي¹.

مسألة روايات الفتح الإسلامي لبلاد المغرب كانت موضوعا للعديد من الدراسات، على غرار دراسة روبرت برونشفيك (R. Brunschvig) حول ابن عبد الحكم، حيث نفى معظم الروايات الواردة فيه، وتم تصنيفها ضمن الروايات الأسطورية البعيدة كل البعد عن الحقيقية التاريخية². تصدى كذلك الهادي روجي إدريس (H.R Idris) بدوره لهذه المسألة، من خلال دراسة نقدية حول روايات المالكي وابن عذارى حول فتح إفريقية، حيث بين أن الرقيق القيرواني هو المبلور الأساسي للرواية القيروانية³، وبعد خمس سنوات يضيف دراسة يستفرد فيها بنقد رواية المالكي، ويبين الجانب المناقبي والخيالي في هذا النص⁴، في نفس سياق النقد قدم محمد

الطالبي نضا جديدا يغطي فترة مقاومة الكاهنة للفتح، مبينا استحالة نسبة القطعة المبتورة التي عثر عليها مُجد المنوني بالمغرب للريق القيرواني⁵، ومن المدرسة الأمريكية يقدم والتر كييجي (Walter E. Kaegi) أحد المختصين في التاريخ البيزنطي، دراسة مطولة لتاريخ الفتح، منطلقا من مصادر عربية ويونانية وسريانية، تعتبر الأكثر شمولية نظرا لاعتماده على مادة خبرية متنوعة ومتفاوتة في القيمة في هذا المجال.⁶

نظرا للفجوة الزمنية بين الفتح والمصادر المدونة وما تثيره من تساؤلات حول وجود كتابات عربية أو بيزنطية قديمة لم تصلنا، حاولت في هذا المقال، معتمدا على مقارنة نقدية للنصوص، اثاره النقاش حول طبيعة وماهية المادة الخيرية والأدبية المتعددة التي أشارت الى تلك الحملات العسكرية المتكررة التي شنها العرب المسلمون على بلاد المغرب خلال القرن 1 هـ / 7 م، أو ما بات يعرف في المصادر الاسلامية المبكرة بـ "الفتوح"، فماهي أقدم الروايات المحلية التي وصلتنا عن فتح المغرب؟ وهل ما وصلنا من مخطوطات جاء عن طريق رواية مكتوبة أو شفوية؟ كما سعيت للوقوف على مسألة حقيقة هذه الروايات هل هي فعلا تعكس ما حدث، أم أنها لا تزيد عن كونها أفكار وتصورات مرتبطة بشكل كبير بمرحلة تكوين النص؟

2. الرواية الموازية: حضور ضئيل

إن المقصود بالرواية الموازية، هي الرواية التي صدرت عن غير المسلمين، أو تلك التي صاغها الطرف الآخر في الصراع، تميزا لها عن رواية المنتصر، وكلاهما يشتركان في موضوع واحد وهو الفتح، مع خصوصية سردية لكل رواية، تجعلها تتفق أو تختلف مع الرواية المقابلة.

الرواية البيزنطية في بنيتها هي وريثة التقاليد الرومانية واليونانية التاريخية القديمة، وهي كأي رواية حتما ستكون متحيزة، وتعالج الأحداث من منظور مؤلفها والجهة التي يكتب لها، كما يثير نوع هذه الرواية الشك في مصداقيتها، فهي ليست، في أغلبها، مؤلفات تاريخية بما تعنيه هذه الكلمة من معنى، وإنما هي أشكال أدبية بلاغية غرضها المدح أو الوعظ كسير القديسين

والشهداء، أضيف إلى ذلك الرسائل التي تتضمن الجدالات اللاهوتية المتأججة آنذاك في جميع أنحاء الإمبراطورية، ولعل هذا هو الشيء الذي يضيف نوعا من القيمة عليها، فهذه الجدالات غالبا ما تكون عفوية، فليس غرضها التأريخ للفتح بقدر ما تعالج الموضوعات العقائدية والسياسية السائدة في الإمبراطورية⁷.

المعلومات عن المجتمعات المسيحية في المقاطعات البيزنطية بالمغرب أثناء الفتح، نادرة للغاية، ناهيك عن المصادر التي تعالج الفتح سواء كانت صادرة عن السكان المحليين أو تلك التي جاءت من مؤلفين من خارج المغرب بحكم علاقتهم مع أساقفة الكنيسة الإفريقية، كما يثير توزيعها جغرافيا وزمنيا، التساؤل حول كيفية انتاجها وحفظها. الجزم باختفاء العنصر المسيحي من المغرب عشية الفتح، مرفوض كليا، فالمصادر العربية لا تكف تشير إلى وجود بقايا مسيحيين بجواضر المغرب إضافة إلى الكنائس، وإلى محدودية الأسلمة⁸.

1.2 مذهب يعقوب/Doctrina Jacobi

من بين أقدم ما وصلنا نجد؛ مذهب يعقوب/Doctrina Jacobi هو عمل مسيحي مناهض لليهود، في سياق التعميد القسري الذي مارسه هرقل ضدهم، وهي في شكل حوار بين اليهود الموجودين في قرطاج، وقد كتب باللغة اليونانية في قرطاج، حوالي 634م/13هـ، لكن من المحتمل أنها كتبت في فلسطين قبيل ذلك التاريخ أو بعده بسنوات قليلة⁹. ذلك أن أخبار انتصار المسلمين على العساكر البيزنطية، وصلت سريعا إلى إفريقيا أوائل عام 630م، أين قام اليهود بمناقشة انعكاسات مثل هذه الأحداث قبل صيف 634م. لا تمثل تعاليم يعقوب سرد تاريخي محكم البناء، يشير في بعض نصوصه إلى الأحداث والشخصيات التي كانت فاعلة في كل من إفريقيا البيزنطية وفلسطين، وبعض اللوحات من سير القديسين ومعجزاتهم، مما يشهد على الروابط بين إفريقية والساحل الفلسطيني¹⁰.

النص المعني، مكتوب باليونانية، وحفظ بعدة لغات: السلافية والسريانية والعربية والإثيوبية، غير أن القطع السريانية فقدت. بالنسبة للنسخة العربية وترجمتها الإثيوبية؛ نجد أن النسخة

العربية تعيد إنتاج النص بالكامل الذي يظهر في النسختين اليونانية والسلافية، من خلال ما وصلنا نجد أن العنوان الأخير قريب من العنوان اليوناني، في الورقة الأولى من النص نعثر على العنوان التالي: "...تاريخ اليهود المعمدين في إفريقيا، في قرطاج، ... والمناقشة التي دارت بينهم"، من بين ما جاء فيها: "صدر مرسوم هرقل في مملكته، يأمر جميع اليهود بالتعميد.. سافر حاكم يدعى Georges l'Éparque إلى إفريقيا مع المرسوم، ولما وصل أمر اليهود بالتجمع وإحضارهم أمامه.."، ورقة أخرى تبين نهاية النص، مع العنوان الأخير: "انتهى هذا الكتاب الذي كتب في إفريقيا، في قرطاج، عن يعقوب، زعيم اليهود، الذي تحول إلى المسيحية، في زمن الإمبراطور هرقل، على يد Georges l'Éparque، كتبه يوسف وابنه سيمون".¹¹

2.2 الحولية البيزنطية-العربية / Chronica Byzantia-Arabica

يمكن الإشارة إلى عمل آخر مهم وهو الحولية البيزنطية-العربية، أين يرد ذكر فتح المغرب مرتين؛ أولاً عند الحديث عن تولي عثمان بن عفان الخلافة، أين أخضع مناطق شاسعة من ليبيا غرب مصر، ثانياً بعد مقتله وتولي معاوية بن أبي سفيان الحكم، أين وُصفت انتصارات قائده عبد الله، الذي كان طواقماً للحرب والقتال، حسب تعبير صاحب الحولية، وعودته لمصر محملاً بالغنائم بعد أن خرب الكثير من الحواضر، على إثر انكسار صفوف المور وهزيمة الكونت غريغور.¹²

هذا النص اللاتيني الذي وصلنا، يتكون من قرابة 40 فقرة، يمكن ترجيح أنه كتب بعد 721م، يمكننا تمييز ثلاث موضوعات رئيسية؛ الصراع البيزنطي العربي، ملوك القوط الغربيين، وبعض الإشارات عن الفتح العربي للمغرب وإسبانيا، مما يدل على أنه مجموع من مؤلفات سابقة، ضمَّ بعضها لبعض في الأندلس بعد 744م، وهو على عكس باقي الروايات، نجده مؤيداً نوعاً ما للأرميين، وهذه قرينة ترجح أن أصله كُتب بدمشق، ويدعم هذا الافتراض الإشارات الهامشية لإسبانيا في الحولية، وإن كان منظور المؤلف هو منظور شخص من أصل إسباني يعيش في ظل النظام الإسلامي ويحاول التكيف مع الظروف الاجتماعية والسياسية الجديدة.¹³ ويمكن أن

يكون مسيحيًا من إفريقية استقر في الأندلس، حيث كان المجتمع المسيحي في إفريقيا على مفترق طرق بين الثقافتين اليونانية واللاتينية، وكان يمكن لناسخ محلي أن يدون وينقل إلى اللغة اللاتينية.

3.2 غياب المغرب مقارنة بالمشرق في النصوص الكنسية

لم يترك أي مؤرخ بيزنطي رواية معاصرة عن الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا، باستثناء مصر، من خلال البرديات والسرد المعاصر ليوحنا أسقف نقيوس، والذي نجى ووصلنا في نسخة أثيوبية لاحقة¹⁴، وبردية قديمة عبارة عن رسالة لتاجر مكتوبة باللغة العربية على ورقة من مخطوطة لاتينية متقنة، تشهد على التجارة المبكرة بين القيروان ومصر في أواخر القرن السابع. ومع ذلك، فإن بعض المصادر الأبائية اليونانية ذات قيمة، مثل أعمال القديس مكسيموس المعترف (ت 580م/662م)، الذي عاش بالفعل لفترة في المنطقة. كما يحتوي كتاب وقائع القرن التاسع المبكر لثيوفانس المعترف على عدد قليل من الإشارات المبعثرة والمختصرة لأحداث شمال إفريقيا، ولكن لا يوجد سرد متماسك، أبرز ما تهمتم هو الجدالات اللاهوتية والكرستولوجية التي بلغت أوجها ذلك الوقت في الإمبراطورية البيزنطية.¹⁵

3. الرواية المغربية-الأندلسية

ترك الانتاج الأدبي للغرب الإسلامي، المتجانس والمتنوع في الوقت نفسه، روايات تاريخية مشتركة، غالباً، عن الحملات العسكرية الإسلامية، ومع ذلك، لا يمكن إنكار أن ظهور هذه الروايات ومحتواها، مرتبط بالبنية الداخلية لكل مجتمع، واستجابة للظروف التاريخية التي يمر بها. يمكن رصد أهم الروايات التي اهتمت بتسجيل وقائع الفتح من خلال المؤلفات المتأخرة التي ظهرت بالغرب الإسلامي.

3-1 العمل المفقود لأحد حفدة ابن المهاجر دينار أول روايات الفتح:

والذي ينسب إليه كتاب "فتوح إفريقية"، وقد ذكر هذا أبو العرب تميم (ت 333هـ/944م) في طبقاته: "وعيسى بن محمد بن سليمان بن أبي المهاجر، سمع من عبد الله بن وهب، ومن أبي

خارجة عنبسة بن خارجة، وغيرهما، وجده أبو المهاجر الذي ولي إفريقية بعد عقبة بن نافع... وكان قد ألف كتابا في فتوح إفريقية. سمع منه: جبلة بن حمود ومحمد بن فرات..¹⁶ .
تتنوع رواياته بين تلك المأخوذة عن الواقدي (ت207هـ/822م) مباشرة، والتي تعد بثلاث روايات، يرتفع سند أحدهما لجندي من مصر قديم مع عقبة، والذي يجعلنا نضعها في خانة "الرواية-الشهادة"، وبين تلك التي عن سحنون عن عبد الله ابن وهب، وابن لهيعة والليث بن سعد، وكلها روايات بصيغة حدثنا، ويمكننا مطالعة سماع واحد عن مشايخ عرب إفريقية، مع استثناء خبر قرأه من كتاب أبي بكر السوسني، نجهل عنوانه، وليس بالضرورة أن يكون المقصود بالكتاب هنا هو مؤلف مكتمل، بل من المحتمل جدا أن يكون رسالة أو ما شابه، ويتعلق بتوجه عبد الله بن سعد لإفريقية واستخلاف عقبة بن عامر الجهني على مصر، ذكره أبي العرب في كتابه مرتين.¹⁷

استنادا إلى كتاب المسالك والممالك للبكري (ت487هـ/1094 م) عندما يتحدث عن خبر هزيمة حسان بن النعمان (ت86هـ/705م) أمام الكاهنة " .. قال محمد: حدثني تميم عن أبيه عن فرات عن أبي المهاجر قال: أخبرني بعض الإسكندرانيين.."، وفي مكان آخر حول نفس القائد قال: " .. روى جماعة عن أبي المهاجر قال: سار حسان.."، وفي خبر آخر ذكر مسير عقبة وماله قال: " .. وروى أبو المهاجر عن رجاله عن شهر بن حوشب.. " وشهر هذا من مشاهير المحدثين من أهل الشام (ت100هـ)، ويتضح أن ولد أبا المهاجر وهو سليمان كان ممن حضر الفتح مع موسى.¹⁸

3-2 البكري يسترجع الرواية القيروانية:

وفيما نقله البكري نجد ذكرا لرواية سحنون بن سعيد (ت240هـ)، وموسى بن معاوية عن ابن وهب وأخرى عن ابن أبي العرب تميم صاحب الطبقات، وكلتا الروايتين يرفعهما لعبد الرحمن بن زياد بن أنعم (ت161هـ/778م) المشهور حسب ما يظهر عند البكري بـ"الجبلي"، والذي ينسب إليه بدوره كتاب "فتوح إفريقية"، ويشترك في سند هذه الروايات كل من ابن وهب وابن

لبيعة¹⁹، وقد ذكره أيضا أبي العرب تميم في طبقاته، ضمن سند يضم كل من سحنون وعبد الله بن وهب، إلا أن أبي العرب يميز بين زياد بن أنعم وأبي عبد الرحمن الحبلي²⁰.

وهناك أيضا ابن الجزار (ت360هـ/971م) الذي ينسب إليه البكري كتاب "مغازي إفريقية"، ويصفه بالمتطبب: "قال أبو جعفر أحمد بن محمد بن أبي خالد المتطبب: إن عندنا بالمغرب ببلاد كتامة..". وفي موضع آخر يذكر معه كتابه: ".. قال أبو جعفر أحمد بن إبراهيم المتطبب القيرواني في مغازي إفريقية..". يذكر فيه خبر موسى بن نصير عند افتتاحه الأندلس²¹. كما نجد ذكرا عند ياقوت الحموي لعبد الملك بن قطن (ت253هـ/867م) المشتهر بالأدب والذي ينسب إليه كتاب "تفسير مغازي الواقدي"²².

عامة هذه المؤلفات المفقودة، نجدها عند أبي العرب تميم (ت333هـ/944م) في كتابه "طبقات علماء إفريقية وتونس"، وأبي بكر المالكي (ت474هـ/1081م) في كتابه "رياض النفوس". بالنسبة لأبي العرب يمكننا رصد إضافة إلى ما سبق، هيمنة لكل من الواقدي وسحنون، مع تسجيل رواية سمعها عن أحد مشايخ إفريقية يُحدث عن إسحاق بن عبد الملك الملشوني حكواتي بني الأغلب²³، حول أول من دخل إفريقية من الأنبياء، ونجد في موضعين آخرين أنه قرأ عنهما؛ الموضوع الأول يخص عقبة ودخوله القيروان وتطوافه بها، والثاني يخص خبر تهودة مكان مقتل عقبة بن نافع وحديث النبي عنها، أين نجد في سند هذه الرواية شهر بن حوشب (ت112هـ/730م)²⁴.

3-3 المالكي يجمع بين الرواية المحلية والمشرقية:

فيما يخص المالكي نجده يستند بدرجة كبيرة على أبي العرب، إلا أننا نميز رواية ومؤلفات جديدة لم ترد عند أبي العرب، مما يجعل من كتابه رياض النفوس يحظى بنوع من الفريدة فيما يخص أخبار الفتح، فعلى غرار الواقدي الذي يسوق عنه روايتين عمّن كان فاعلا في الأحداث²⁵، إحداهما لم ترد عند أبي العرب إلا أنها تتفق حرفيا مع ما ورد عند البلاذري (ت279هـ/892م) في فتوحه²⁶. هناك أيضا رواية عن حنش بن عبد الله الصنعاني²⁷ قال: "غزونا

المغرب.. فافتتحنا قرية يقال لها جربة...²⁸، هذه الرواية بتفاصيلها نجدها عند ابن هشام في سيرة ابن إسحاق²⁹.

فيما سوى ذلك نجد المالكي يورد روايات من تاريخ خليفة بن خياط (240هـ/869م): " قال شباب العصفري في تاريخه"، وسحنون: " ذكر ابن سحنون في تاريخه"، وابن عفير: " قال أبو عثمان سعيد بن عفير في تاريخه"، وابن عبد الحكم: " عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم قال"، وجامع ابن وهب: " قال عبد الله بن وهب في جامعه"³⁰.

3-4 أسانيد ابن خير الاشبيلي واستمرارية الرواية الشفوية:

بالنسبة لتاريخ ابن عفير نجد أن ابن خير الإشبيلي (ت575هـ/1179م) تلقاه وفق سنيين مختلفين، تتخلل أحدهما قراءة " قَرَأْتُ"³¹. ويمكننا معاينة الانتقال الشفوي من خلال ما أورده الحشني في كتابه قضاة الأندلس عن قراءة المغازي في المسجد أمام الشيخ³²، ولا يستبعد أن تكون هذه المغازي تضم إضافة إلى مغازي الرسول، أخبار الفتح وما يرتبط به من أمور فقهية أو ذكر لصحابة أو تابعين أو أشخاص اشتهر ذكرهم، لأن تداول أخبار الفتح وفق الافتراض الذي وضعناه مرتبط أساسا بتداول مغازي الرسول والحديث، ومما يرجح هذا الافتراض العنوان الذي أخذته الفتوح في البداية؛ فلم يكن يقال فتوح إفريقية إنما مغازي إفريقية، مثلما وضحناه فيما سبق.

وهذا يتزامن مع الانتعاش الكبير الذي شهدته الأندلس للمعرفة التاريخية، أين تم تدريس المؤلفات الأولى التي تدور حول السير والمغازي، مثل كتاب مغازي رسول الله لموسى بن عقبة الأسدي (ت141هـ/758م)، كتاب سيرة رسول الله ومغازيه لمحمد بن عمر الواقدي (ت207هـ/822م)، كتاب المغازي والسير لمحمد بن إسحاق المطلي (ت150هـ/767م)، تهذيب سيرة ابن اسحاق لأبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري البصري (ت218هـ/833م)، تركز كتب أخرى على الردة والفتوحات مثل: كتاب الردة والفتوح لمحمد بن عمر الواقدي (ت207هـ/822م)، كتاب فتوح الشام لأبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي (توفي بعد 190هـ)، وفتوح مصر وإفريقية لابن عبد الحكم (ت257هـ/871م)³³.

4. إشكالية الشفوية والتدوين

يتداخل ضمن هذا السياق التاريخ والذاكرة على نحو علائقي وإشكالي؛ فإذا كان مفهوم التاريخ يحيل على مجموع وقائع الماضي وعلى المعرفة التي تشكلت عن تلك الوقائع، فإن مفهوم الذاكرة يحيل على "آليات تمثل الماضي واستحضاره، ومسارات تشكل هذا التمثيل من الناحية الاجتماعية والسياسية والثقافية"³⁴. بعبارة أخرى نحن أمام مستويين للخبر التاريخي المتعلق بالفتح؛ التاريخي وهو ما وقع فعلا أو ما يفترض أنه وقع، والذاكرة أو الرواية التي هي حصيلة عملية الاستدكار داخل الوسط السوسيو-ثقافي للمتذكر أو الراوي. ولفهم هذه المسألة لا بد من التطرق إلى مسألة التدوين التاريخي في المشرق وكيف بدأ لفهم بنية روايات الفتح المحلية (شفوية/مدونة) والمحيط الفكري التاريخي الذي نشأت فيه.

1.4 رواية الفتح امتداد لأيام العرب

اهتم العرب بأخبارهم المتعلقة بغزواتهم ومعاركهم فيما عرف عندهم باسم "الأيام"، حيث ذُكر عنهم مرويات شفوية تدور حول حياتهم الاجتماعية والعسكرية، والرأي الشائع عن الطريقة التي تناقلت بها تشير إلى الانتقال الشفهي، وأنه ربما كانت بعض مادتها قد دوت في بعض الأزمنة³⁵.

غير أن الكتابة التاريخية في البداية لم تأخذ صيغتها التي اشتهرت فيما بعد؛ إذ يمكننا إرجاع نشأة أول مدرسة تاريخية في المدينة، حيث بدأ الفحص العلمي لتاريخ بدايات الإسلام والجمع لمختلف الروايات، ولقد قام بهذا العمل رجال ينتمون إلى الجيل الأول من التابعين، أمثال أبان بن عثمان (ت95هـ/714م) وعروة بن الزبير (ت94هـ/713م)³⁶.

انطلاقا من المصطلحات التي وصفت بها عملية الحديث عن الماضي، يمكننا فهم طبيعة هذا النشاط التاريخي. تواجهنا كلمتي "الحديث" و "الخبر"، وفي كثير من الأحيان نجد أن هذين المصطلحين يستخدمان كالمترادفات، مع اختصاص مصطلح حديث بالمعلومات المتعلقة بالنبي ﷺ، بينما مصطلح خبر نجده عاما يشمل ما سبق، إضافة إلى باقي أشكال الرواية.

بناء عليه وعلى ما قدمه عروة، يتضح أن التدوين التاريخي عند المسلمين ارتبط بمقتضيات ومتطلبات دينية صرفة، وكانت البداية الأولى هي كتابة "المغازي" و"السيرة النبوية"، التي هي في أصلها مجموع الأخبار المرتبطة بشخص الرسول من مولده الى وفاته، فكانت بذلك النواة التي تبلورت حولها الروايات الإخبارية وشكلت العنصر المهم في تطور علم التاريخ عند المسلمين³⁷.

وهذا يدفعنا إلى التساؤل عن الأسباب التي كانت وراء الاهتمام بالتاريخ؟

يمكن ترجيح الرأي الشائع بأن من الدوافع العملية لدراسة التاريخ عند المسلمين، توافر المادة التاريخية والقصص التاريخي في القرآن، مما دفع مفسري القرآن إلى البحث عن معلومات تاريخية لتفسير ما جاء فيه، وقد أصبح الاهتمام بالمادة التاريخية على مر الزمان، أحد فروع المعرفة التي تمتد بالارتباط بالقرآن³⁸.

من ناحية أخرى نجد أن المغازي برزت لأن البيئة العربية تؤكد على دور القائد الحربي بصفته الأمير الذي يتصف بالحكمة والشجاعة، ونجد أنه زمن كل من معاوية بن أبي سفيان (41-60هـ/644م)، وعبد الملك بن مروان (65-86هـ/689م، 710م) قام الرواة بصياغة المغازي وفق أسلوب الملاحم الذي يذكر بأيام العرب، وبهذا نجد أن أيام العرب أعادت هيكلتها نفسها داخل مغازي النبي ثم مع الفتوحات³⁹.

2.4.4 الذكارة مصدرا للخبر التاريخي

تعددت آراء الباحثين بشأن روايات الفتح حيث يذهب بعضهم إلى أن ما وصلنا من مادة تاريخية في كتب القرن الثالث والرابع للهجرة لم يكن في الأصل سوى مادة شفوية، ومنهم من دافع عن فكرة التدوين المبكر للرواية، رافضين لفكرة الانتقال الشفوي بافتراض وجود نصوص مدونة تم استعادتها في الكتب الإخبارية اللاحقة⁴⁰.

من خلال تفحصنا للروايات التي ذكرت لنا مجريات الفتح يمكننا تمييز طريقتين للانتقال: شفوية ومكتوبة؛ نميز الشفوية من خلال العبارات التالية: (حَدَّثَ، سَمِعَ، أَخْبَرَ، رَوَى، وَأَنْبَأَ، ذَكَرَ)، والتي لا نكاد نجد غيرها وعليه نرجح الانتقال الشفوي لكن لا يمكن الجزم به، لما عثرنا عليه من إشارات نادرة عن وجود نسخ مكتوبة في فترات متفاوتة.

لقد أرجع مصطفى شاكر الخلط الذي وقع فيه الباحثين المهتمين بالتدوين التاريخي عند المسلمين وبالمصادر الإسلامية الأولى، إلى جهلهم بطرق انتقال المعرفة عند المسلمين، حيث نجده يميز بين ثلاث مستويات لنقل المعرفة، حيث تبدأ بالاستماع إلى الشهادة من الشهود المباشرين للحدث التاريخي وهي عملية شفوية خالصة، ثم عملية حفظ المعلومات التي لا تتم عن طريق الذاكرة وحدها بل تتم في أغلب الحالات بالتدوين الشخصي، تليها عملية نقل المعلومات إلى الآخرين وفق طريقة المشافهة⁴¹.

في نفس السياق يجب الانتباه إلى مسألة ضرورية قد نبه إليها المستشرق النمساوي الأصل شبرنجر (Aloys Sprenger) وهي أنه يجب التمييز بين التدوين فقط قصد الاستعانة على الحفظ، وبين تدوين دفاتر قصد استعمالها للتلقين، وبين تأليف كتب قصد نشرها⁴²، وعليه يمكن الخروج من مأزق الشفوية والكتابة بافتراض أو ترجيح أن المؤلفات التي تناولت فتح المغرب الإسلامي تجمع بين الشفوية والكتابة⁴³.

وعليه يجب التعامل معها بحذر، لأن النقد موجه للذاكرة الجماعية التي بلورت هذه الروايات ثم الكتابة التاريخية الرسمية التي صدرت فيما بعد بمختلف أنواعها. إذا لا تبدأ الكتابة التاريخية التي تسعى إلى تمثل الماضي مع التاريخ بل مع الذاكرة، التي هي حسب تعبير جاك لوغوف (Le Goff)، مادة التاريخ الأول ذات الطبيعة الأسطورية، لأنها مشوهة خالطة للأزمنة⁴⁴، فالذاكرة هي المحطة الأولى التي يجب تحديد ديناميكيتها في تركيب الحدث، من بعدها تأتي المحطة الثانية وهي الإنتاج التاريخي⁴⁵. وهنا يظهر الارتباط بين التاريخ والذاكرة، بين الثابت والمتغير، فمن المتحكم في بلورة خبر الفتح هل هي الذاكرة أم التاريخ؟

الافتراض الذي نرجحه لمناقشة هذه الإشكالية هو الذاكرة الجماعية وتطورها نتيجة السياق التي مرت به، وحتى وإن ابتعدت المصادر المتأخرة عن الفترة التأسيسية الشفوية، تبقى خاضعة للذاكرة الجماعية، فمقابلتنا للأخبار الواردة عند كل من أبي العرب والمالكي، تجعلنا نقف على التباينات الكثيرة بين الروايات من حيث الفاعلين في الأحداث والوقائع، إضافة إلى حضور البعد العجائبي الكراماتي من ناحية والبعد الإيديولوجي من ناحية أخرى، حيث نرى أن الرواية

هي من تدل على الحدث أكثر من دلالة الحدث عن نفسه، فالواقع هو واقع الرواية لا واقع الحدث، وهذا يرجع بصفة رئيسية للرافد الأساسي للرواية المتمثل في الطبقات، التي كتبت في سياق التأسيس لهوية القيروان السياسية والدينية.

وعليه يظهر أن عملية الصياغة تمر بثلاث مراحل متجددة عبر الزمن، تكون فيها الذاكرة الوسيط الفاعل: فمن الذاكرة صُغنا التاريخ، هذا الأخير انتقل في سياقات مختلفة، ساهم في تشكيل ذاكرة جمعية جديدة، لتنتقل هذه الأخيرة بدورها للتاريخ مرة أخرى، محملة بأيدولوجية جديدة، ساهت في تأسيسها الظروف المصاحبة لهذا الاستدكار⁴⁶.

5. الخاتمة

يتضح مما سبق أن أغلب مصادر الفتح التي وصلتنا، شفوية بالدرجة الأولى، وعربية-مشرقية بالدرجة الثانية، أين نلاحظ هيمنة روائية لفقهاء ومحدثي مصر: الليث بن سعد (ت175هـ)، وابن لبيعة (ت174هـ) وعبد الله بن وهب المصري (ت197هـ)، تليها رواية الواقدي (ت207هـ). وعليه وجدت هذه الروايات قبولا على الرغم من شفويتها، لأن للكلمة المنطوقة في الثقافة الإسلامية بعد روحي مستمد من طريقة نزول الوحي وتداوله، وبعد تقليدي مستمد من الطريقة التي كان يُتناقل بها الشعر وأدب الأيام في الجاهلية. وهذا يؤكد أن التأليف في فن الفتح، انبثق من نواة الكتابة التاريخية عند المسلمين وهي: (الحديث والتفسير) اللذان تولدت منهما (السيرة والمغازي).

في المقابل نجد الرواية المحلية المغربية، بريادة سحنون بن سعيد (ت240هـ)، وزيايد بن أنعم (ت161هـ) وعبد الملك بن قطن (ت253هـ) وابن الجزائر (ت360هـ)، وهذه كلها تشترك في كونها روايات قد تم تدوينها في فترة ما، على عكس السابقة بالرغم من اعتمادها عليها، لكن لا يعتبر هذا أمرا فريدا، إذ تتزامن هذه المؤلفات مع المؤلفات العراقية والمصرية، والتي بات يعتمد عليها، بداية من المالكي في رياضه، والتي بدورها تستند للسلطة الروائية المصرية الشفوية السابقة.

لكن هذا لا يعني أن الرواية المحلية مشرقية، فكون خبر الفتح تم تناقله في المجال المغربي، بغض النظر عن الفترة، لا يترك مجالاً للشك بأن الرواية قد تم تخليصها من الهيمنة المشرقية، فالراوي يعيد بلورة الرواية حسب سياقه، وهذا أمر لا يمكن رصده على السطح، وإنما نستخلصه من مضمون الرواية في حد ذاتها. حيث أن أغلب الروايات السابقة، لم تكن روايات مُعطاة بل هي مُهيئة ومؤسّسة، انطلاقاً من تمثّل يستجيب لحاضر المؤرخ، فهي مدونة انطلاقاً من الذاكرة الثقافية الفاعلة آنذاك، الساعية إلى تأكيد الانتماء إلى أمة الرسول مقابل باقي الأمم، أين تغيب هذه الأخيرة داخل السرد العربي ولا نكاد نعثر لها على رواية، باستثناء بعض الإشارات التي نجدها عند أباء الكنيسة التي تضمنتها رسائلهم، في إطار الصراع الكريستولوجي القديم، الذي اشتدت نزعتة، في سياق بروز القوى الجديدة وتراجع القديمة.

5. الهوامش:

¹ Fred M. Donner, *Narratives of Islamic Origins: The Beginnings of Islamic Historical Writing*, Darwin Press, Incorporated; Third Printing edition, 1998, p. 9-22.

² Robert Brunschvig, "Ibn Abd al-Hakam et la conquête de l'Afrique du Nord par les Arabes : étude critique", *Al-Andalus de l'Institut d'études orientales*, 40 (1975), p. 129-179

³ Hadi Roger Idris. "Examen critique des recits d'al-Mäliki"i et d'Ibn 'Idhäril sur la conquête de l'Ifriqiya", *Arabica* 11 (1964), pp. 5-18

⁴Hadi Roger Idris « Le récit d'al-Mäliki sur la conquête de l'Ifriqiyah », *Revue des Etudes Islamiques* 37 (1969), pp. 117-149.

⁵ Mohamed Talbi, « Un nouveau fragment de l'histoire de l'Occident Musulman (62-196/682-812) : L'épopée d'al-Kahina », *Cahiers de Tunisie* 19 (1971), pp. 19-52.

⁶ Walter Emil Kaegi, *Muslim Expansion and Byzantine Collapse in North Africa*. Cambridge University Press. 2010.

⁷ Averil Cameron, Byzantine Africa: the literary evidence, in Excavations at Carthage 1975, by: J.H. Humphrey, Ann Arbor: University of Michigan, 1982, Vol. 7, pp. 29-62.

⁸ Dominique Valérian, la permanence du christianisme au Maghreb: l'apport problématique des sources latines, in Islamisation et Arabisation de l'occident Musulman Médiéval (VIIE-XIIE siècle), Éditions de la Sorbonne Collection, Paris, 2011, pp.131-149

⁹ Patricia crone & Michael Cook, Hagarism the making of the Islamic World, Cambridge University Press, 1977, p.3

¹⁰ Walter Emil Kaegi, Muslim Expansion and Byzantine Collapse in North Africa, op. cit., p. 36,293

¹¹ Doctrina Jacobi, G. Dagron, V. Déroche, Juifs et Chrétiens dans l'Orient du VIIe siècle, TM 11, 1991, p.47,51,52.

¹² Chronica Byzantia-Arabica, in Corpus scriptorium Muzarabicorum, by: Juan Gil, Instituto Antonio de Nebrija, Madrid, 1973, vol.1, p.10.

¹³ Fernando González Muñoz, Un perfil para el autor de la Crónica Mozárabe de 754, Collectanea Christiana Orientalia 15 (2018), pp. 31-48

¹⁴ يوحنا النقيوسى: تاريخ مصر، تر: عمر صابر عبد الجليل، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية، 2003

¹⁵ Walter Emil Kaegi, Muslim Expansion and Byzantine Collapse in North Africa, op. cit., p. 31,34

¹⁶ أبو العرب: طبقات علماء افريقية، دار الكتاب اللبناني، ص. 120.

¹⁷ أبو العرب، المصدر السابق، ص8، 9، 12، 15، 18.

¹⁸ أبي عبيد البكري: المسالك والممالك، تح: أدريان فان ليوفن وأندري فيري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص. 654، 693، 741، 798.

¹⁹ البكري، المصدر السابق، ص. 671، 672

²⁰ أبو العرب، مصدر سابق، ص. 1

²¹ البكري، مصدر سابق، ص. 687، 700

- ²² ياقوت الحموي: معجم الأديب، معجم الأديب إلى معرفة الأديب، تح: احسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1993، ج 6، ص. 2859.
- ²³ وعبد الملك الملشوني هذا صاحب مغازي وسير، وله كتاب في أخبار الأنبياء، كان ابنه إسحاق يجالس أمراء بني الأغلب في رمضان يحدثهم بأخبار الأمم السالفة والأعوام الماضية. أنظر: أبو بكر المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تح: بشير البكوش ومحمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 2، 1994، ج 1، ص. 401، 402.
- ²⁴ أبو العرب تميم، مصدر سابق، ص. 8، 9، 10، 12، 13، 14، 15، 16.
- ²⁵ المالكي، مصدر سابق، ص. 16، 19.
- ²⁶ البلاذري: فتوح البلدان، تح: عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، 1987، ص. 318.
- ²⁷ حنش بن عبد الله الصنعاني صحابي هو الذي افتتح جزيرة شريك وقتل أهلها وجهه إليها أبو المهاجر. أبو العرب، طبقات علماء إفريقية، مصدر سابق، ص. 18.
- ²⁸ المالكي، مصدر سابق، ص. 81.
- ²⁹ ابن هشام المعافري: السيرة النبوية، تح: مصطفى السقي وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج 3، ص. 345.
- ³⁰ المالكي، مصدر سابق، ص. 18، 19، 74، 91، 98.
- ³¹ ابن خير الإشبيلي: الفهرسة، شر: محمد فؤاد منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1998، ص. 196.
- ³² الخشني: قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، نشره: عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 2، 1994، ص. 255.
- ³³ Allaoua Amara, la transmission du savoir historique en al-andalous et au Maghreb à la fin du moyen Age, The Maghreb Review, Vol. 28,2 3.2003, pp 215-244
- ³⁴ ياسين اليحياوي: "الذاكرة الجمعية موضوعا للبحث التاريخي. دراسة في نماذج مختارة من مؤرخي الجيل الثالث لمدرسة الحوليات"، مجلة أسطور للدراسات التاريخية، 7(2018)، ص ص 110-123
- ³⁵ عبد العزيز الدوري: نشأة علم التاريخ عند العرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 2، 2007، ص. 16.

- ³⁶ غريغور شولر: الكتابة والشفوية في بدايات الإسلام، تر: رشيد بازي، المركز الثقافي للكتاب، المغرب، ط 1، 2016، ص. 82، 83.
- ³⁷ أيمن فؤاد السيد: الكتابة التاريخية ومناهج النقد التاريخي عند المؤرخين المسلمين، مرجع سابق، ص. 41، 42.
- ³⁸ فرانز روزنتال: علم التاريخ عند المسلمين، تر: أحمد صالح علي، دار المدار الإسلامي، ليبيا، 2017، ص. 51.
- ³⁹ حياة عمامو: "السيرة النبوية بين رواتها ومؤلفيها"، مجلة أسطور للدراسات التاريخية، 4(2016)، ص ص 25-45.
- ⁴⁰ Fred M. Donner, Narratives of Islamic Origins, op. cit., p 9-22.
- ⁴¹ مصطفى شاكرا، التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، ط. 2، 1983، ج 1، ص. 75، 76.
- ⁴² غريغور شولر، مرجع سابق، ص. 11-13.
- ⁴³ حياة عمامو: "ماهية المصادر الإسلامية المبكرة واختلاف آراء الباحثين في أهميتها التاريخية"، مجلة أسطور للدراسات التاريخية، 6(2017)، ص ص 7-21.
- ⁴⁴ وجيه كوثراني: "التاريخ والذاكرة والكتابة التاريخية" مجلة أسطور للدراسات التاريخية، 4(2016)، ص ص 13-24.
- ⁴⁵ Paul Ricœur, L'écriture de l'histoire et la représentation du passé, Annales HSS, juillet-aout 2000, pp. 737-747.
- ⁴⁶ محمد حبيدة: الكتابة التاريخية، بيار نورا: "الذاكرة الجماعية"، إفريقيا الشرق، المغرب، ط. 2، 2015، ص. 87-89.